السعد وعد

(١)

من إعلانات التليفزيون والجرائد والمجلات تعرَّفت على اسمه وعنوانه وصورته وأرقام تليفوناته، إنه رجل الأعمال الكبير ورجل البر والإحسان المعروف، ورئيس وعضو مجالس إدارة الكثير من الجمعيات الخيرية، وصاحب مصنع وشركة حلويات (البركة) بالقاهرة الجديدة.

إنه الحاج «حسان الشرباتلي» زميل المدرسة الثانوية.. والذي عمل والده معه المستحيل للحصول على الثانوية العامة، وتقدَّم للامتحان عدة مرات، وكان يحصل على أدنى الدرجات في جميع المواد!

وها هو الآن من رجال الأعمال، ونجوم المجتمع البارزين الذين يشار إليهم بالبنان.

ذات مساء وبعد تردد قررت زيارته في عنوانه في المركز الرئيسي

للشركة. وكانت مفاجأة عندما وجدني أمامه وجهًا لوجه دون سابق موعد، ولدهشتي أنه تذكَّرني على الفور. وسرعان ما نهض من جلسته وأخذني بالأحضان قائلًا والابتسامة تتسع على شفتيه:

- محروس!.. صديق العمر وحبيب القلب، فين أيامك الحلوة يا راجل؟

(طبعًا لم تكن حلوة ولا حاجة بالنسبة له) وانشغل بالرد على التليفون بينما سرحت أنا في الماضي وعادت بي الذاكرة إلى الوراء لأكثر من ثلاثين عامًا.

كنا مجموعة من الأصدقاء (في فصل ثالثة خامس) بمدرسة السعيدية الثانوية، وكان هو أقربهم إلى قلبي لأنه من أسرة بسيطة مثلي.

أنهى مكالمته وقطع شريط الذكريات.. ثم استأنف ترحيبه بي وسألني:

- قهوتك إيه؟

وطلب لي القهوة بالتليفون، واسترسل هو الآخر في عرض شريط الذكريات:

- ثلاثون عامًا يا محروس مرت بالسرعة دي!!

وهز رأسه ثم استطرد قائلاً:

- ثلاثون عامًا مرت بحلوها ومرها.

ثم سألني بنبرته الحزينة:

- طبعًا دخلت الجامعة يا محروس؟ أنت كنت مجتهد ومتفوق ولكل مجتهد نصيب.

- الحمد لله دخلت كلية التجارة واخدت البكالوريوس واتعينت في الحكومة من ساعتها.

ثم استطرد الحاج حسان قائلاً:

- وأنا زي ما أنت شايف كدة.. الحمد لله.

- ربنا يزيدك من نعيمه، أنت راجل صبور ومكافح وتستاهل كل خير.

- الحمد لله رب العالمين..

ولفت نظري اللافتة المعلقة خلف مكتبه والمكتوبة بحروف من ذهب (هذا من فضل ربي).

وبعد الانتهاء من فنجان القهوة هممت بالانصراف، ولم يوافق على انصرافي إلا بعد جهد جهيد، وكان مصرًا على اصطحابي

معه إلى المنزل لتناول الغذاء والتعرُّف على أسرته، ولكني اعتذرت ووعدته بتنفيذ رغبته في أقرب فرصة.

وكان قد أعطاني عنوان الفيلا التي يقيم فيها.

(٢)

عندما سمحت ظروفي وحسب الوعد، وفي إحدى الأمسيات قمت بالاتصال تليفونيًا بالحاج حسان لزيارته بالمنزل.

وفي خلال ساعة كنت معه بفيلته بالمعادي، وجدت أسرته بأكملها مجتمعة بالبهو الكبير لاستقبالي، وأخذ الحاج حسان يعرِّفني بأفراد الأسرة فردًا فردًا وهو في غاية السعادة والسرور قائلًا وهو يشير إلى زوجته:

- الحاجة قمر (وهي فعلًا قمر).. ابني الكبير ضياء مهندس مدني، وبيشتغل حاليًا بالسعودية.. وابني الصُّغيَّر حسن دكتور بشري بالحكومة.

ثم استطرد مشيرًا إلى ابنته وهو يداعب خدها الوردي:

- ودي الأمورة أخر العنقود سوسن طالبة بكلية الإعلام، وعايزة تبقى مذيعة بالتليفزيون يا سيدي.

وكانت وليمة العشاء خرافية، وقضينا أمسية ممتعة في حديقة الفيلا وكأنني أحد أفراد الأسرة الكريمة، وكان عتابهم شديدًا

لعدم اصطحابي أسرتي معي في هذه الزيارة، فشكرتهم مقدمًا لهم بعض الأعذار، واستأذنت بالانصراف وودعني الحاج حسان حتى الباب الخارجي طالبًا مني ضرورة مقابلته بالشركة غدًا لأمر مهم.

وأمر سائقه الخصوصي بتوصيلي إلى بيتي بحلون، وكانت الساعة قاربت على الحادية عشرة مساءً.

وفي مساء اليوم التالي ذهبت إلى الشركة لمقابلته، وتطرق الحديث إلى ذكريات الماضي البعيد للمرة الثانية..

وفي نهاية الحديث دحرج رأسه الصغير إلى مسند كرسيه الجلد وأسبل عينيه كمن يستريح بعد عناء طويل، وأخذ يتحدث عن نفسه، ويسرد تاريخ كفاحه الطويل الحافل بالفشل والنجاح في مجال التجارة، وكثيرًا من الأعمال الحرة بعيدًا عن الحكومة وفقر الحكومة، ثم استطرد قائلاً:

- أقولك إيه ولا إيه يا أستاذ محروس، مشوار طويل وصعب ومليان بالمتاعب، أوعى تفتكر الحكاية كانت سهلة.. وأخيرًا الحمد لله وصلت للي إنت شايفه بإذن الله وعونه أولاً وأخيرًا.

ونظرت إليه بكل فخر وإعزاز قائلاً بكل صدق:

- ربنا يزيدك من نعيمه، لكل مجتهد نصيب.

وعندما هممت بالانصراف طلب مني الانتظار قائلاً:

- إستني شوية يا أستاذ محروس أنت مستعجل ليه؟ إحنا لسه ما اتكلمناش في الموضوع اللي طلبتك علشانه.

وبعد أن أنهى مكالمة تليفونية مع أحد العملاء نظر إليّ بمودة قائلاً:

- شوف يا محروس يا أخويا، اسمحلي أن أقولك يا محروس حاف.

فابتسمت ووافقت بإيماءة مني ثم استأنف قائلًا:

- إنت عارف أنا بعزك أد إيه من زمان، وإنت عارف إني مليش أخوة والأولاد زي مانت شايف كل واحد في وادي وملهومش في التجارة، وبصراحة كدة ومن الأخر علشان ما اعطلكش أنا اخترتك تكون شريكًا لي– بمجهودك– في جميع أعمالي، لإني محتاج لواحد زيك أمين ومخلص ومحترم، ومش هلاقي أحسن منك، إيه رأيك؟

ومن شدة المفاجأة استولى عليّ الصمت فترة ثم أجبته قائلاً:

- أولاً أنا سعيد جدًا بالثقة دي، لكني لسه في الخدمة.

وضحك الحاج حسان ساخرًا ثم قال:

- في الحكومة يعني؟.. اسمح لي يا أخويا بدون إحراج، ممكن أسألك

بتاخد كام من الحكومة بعد العمر ده كله، لامؤاخذة يعني؟

فمصمصت شفتي ولم أنطق بكلمة (أقول إيه؟.. حاجة تكسف).

فاستطرد الحاج حسان قائلاً:

- يا سيدي رزق وجالك لحد عندك ترفضه؟، خليك معايا في الفترة المسائية لغاية ما تخرج على المعاش بالسلامة، وبعد كدة تبقى معانا طول الوقت، إيه رأيك؟، وافق علشان خاطري.

ولم يكن في وسعي إلا الموافقة عن طيب خاطر وسرور طالما أن الرجل وضع ثقته في.

ونهض الحاج حسان من جلسته وضمَّني إلى صدره مهنئًا:

- مبروك عليك وعلينا.. على بركة الله، إنت كنت فين من زمان يا راجل يا طيب؟، ربنا بعتك لي في الوقت المناسب، على الأقل أستريح شوية على حسك، وأنا مطمئن على أموالي، متنساش كمان إنك محاسب كبير.

وانصرفت على أن أبدأ العمل في مساء اليوم التالي إن شاء الله.

(٣)

وجدت في انتظاري حجرة مكتب خاصة بي، مجهزة على أعلى مستوى ولا مكتب وزير!، وكان أول توقيع لي على ورقة مطبوعة باسم شركة البركة للحلويات هي إقرار تَسَلُّم العمل بالشركة، وعلمت أنه تم تحديد مرتب شهري لي بصفتي مديرًا تنفيذيًّا، بالإضافة إلى نصيبي في الأرباح.

ولم أصدق نفسي، وكدت أطير من الفرحة، وكان هذا التقدير من دواعي اجتهادي وتفانيّ في العمل، لدرجة أن الرجل كان دائمًا يطلب مني عدم بذل كل هذا الجهد الكبير، ولكن ذلك كان على قلبي أحلى من العسل!، وكنت أشعر أن شبابي قد عاد إليّ ثانية.

وكان الحاج حسان اجتماعيًّا من الدرجة الأولى، واكتشفت من واقع المستندات أنه يتبرع للجمعيات الخيرية بصفة مستمرة، كما أنه يعطي في الخفاء للكثير من الأسر الفقيرة.

ومرت الأيام وعند إعداد أول ميزانية سنوية للشركة في وجودي

وبمشاركتي بصفتي محاسبًا متميزًا بالشركة لاحظ الحاج حسان وجود زيادة كبيرة في الأرباح لم تتحقق في السنوات السابقة، فأمر بمضاعفة المكافآت لجميع العاملين بالمصنع والشركة، وكنت أنا أولهم طبعًا.

ودعاني أنا وأسرتي لحضور حفل بمنزله بمناسبة انتهاء السنة المالية للشركة، وتحقيق زيادة في الأرباح.

وفي الموعد المحدد للحفل توجهنا إلى فيلا الحاج حسان، وكان عشاءً فاخرًا، طباخون وسفراجية وخدم وحشم.

وكانت أشجار الحديقة مرصعة بلمبات الكهرباء الملونة، مع تشغيل موسيقا هادئة، وكانت سهرة ولا في الأحلام..

وقام الحاج حسان بتعريفنا على جميع الحاضرين، كما عرَّفتهم على أسرتي، مشيرًا إلى كل منهم:

- الحاجة حسنية زوجتي، الدكتور خالد ابني، صيدلي بالكويت، بنتي الكبيرة هالة، اقتصاد وعلوم سياسية، و بتشتغل في وزارة الخارجية، بنتي الصغرى هيام، خريجة كلية الألسن ، وبتشتغل في شركة سياحة.

ومن أول وهلة أعجب ضياء بهالة، كما أعجب خالد

بسوسن، وكان تبادل النظرات والابتسامات واضحًا وملحوظًا أمام الحاضرين، وكنت أنظر في ساعتي بين الحين والآخر طالبًا من أسرتي الانصراف حتى يمكننا الحصول على قسط وافر من النوم والذهاب إلى العمل صباحًا، وكان الحاج حسان يعقِّب على ذلك قائلاً:

- يا سيدي الأيام والليالي الحلوة دي ماتتعوضش، ومحدش عارف الأيام الجاية فيها إيه.

وعندما أشارت عقارب الساعة إلى الثانية صباحًا، انفض الحفل وانصرف جميع الحاضرين.

(٤)

تقدَّم نجل أحد أصدقاء الحاج حسان، ويعمل صيدليًا بإحدى شركات الأدوية، وهو من عائلة عريقة لطلب يد سوسن، على أن يتم الزواج بعد تخرجها في كلية الإعلام، وطلب منه الحاج حسان مهلة للرد عليه.

وفي اليوم التالي تحدَّث الحاج حسان معي في هذا الأمر ليأخذ رأيي، فهو يعتبرني من العائلة، ولم يكن له أي هدف آخر، ولكني هززت رأسي ولم أعطه رأيًا.

وظهرت الحيرة على ملامحه وقال لنفسه: (وإحنا هنلاقي زي الناس دول فين)، على العموم ربنا يقدِّم اللي فيه الخير، ثم التفتُّ إليه وقلت بنبرة حزينة:

- نسأل عن العريس وأهله أولًا ثم الرأي الأول والأخير للبنت، وهي في الحقيقة تستاهل كل خير.

واستشف الحاج حسان من كلامي أنني أريد قول شيء آخر ولكنني متردد. وعلى العشاء أخبرت أسرتي بالموضوع عن العريس

الذي تقدَّم لسوسن، وعمت الكآبة على الأسرة بأكملها، فكان أملهم أن تكون سوسن لخالد وقلت مواسيًا:

- على العموم الموضوع لسه ما تمش فيه حاجة، ومش عارفين رأي البنت فيه إيه.

وقالت الحاجة حسنية:

- طب والعمل يا أبو خالد، البنت هاتطير منا، دول ناس حلوين، الراجل محترم، والست طيبة، والبنت مفيش كدة، الحق مش ناقصها حاجة، ثم سرحت قليلًا واستطردت:

- كل شيء قسمة ونصيب يا أم خالد، هانعمل إيه؟

وجلس خالد واضعًا يد على خده فقلتُ له:

- وإنت إيه رأيك يا ابني؟

فلم يرد عليّ فقلت:

- يا جماعة سيبوا الأمور تمشي لوحدها، وكل شيء نصيب.

فردت الأم محتدة:

- يعني نفضل ساكتين ونقول كل شيء نصيب؟!

ولم يعقِّب عليها أحد، وقضوا ليلتهم في حيرة وحسرة، ولم

يغمض لهم جفن.

وفي مساء اليوم التالي ذهبتُ إلى الشركة قبل موعدي، وكنت مُتلَهِّفًا لمعرفة النتيجة، وعندما حضر الحاج حسان أسرعت بسؤاله:

- خير عملتوا إيه يا حاج؟

فأجابني الحاج حسان بدهشة:

- عملنا إيه في إيه؟!

- في موضوع العريس.

- إنت مهتم أوي بالموضوع ده يا محروس؟

- طبعًا مهي زي بنتي ويهمني أمرها برضو.

- البنت رفضته نهائيًا.

- ليه كفانا الشر؟

- بتقول دمه تقيل، وماستريحتلوش.

فتنفست الصعداء وكسا السرور ملامحي، وكدت أنطق بطلب سوسن لابني خالد، ولكن الموضوع (عايز قعدة تانية).

(٥)

في يوم الإجازة قررت أن أعقد اجتماعًا مع أسرتي بشأن زواج خالد من سوسن، وللعجب أنني علمت بعد ذلك إنه في نفس اليوم كان الحاج حسان وأسرته كانوا في اجتماع بشأن طلب هالة لابنه ضياء.

ولكن خالد كان مترددًا بعض الشيء، حيث إنه قد صرَّح لأخته هالة بعلاقته بفتاة من عائلة مصرية، وهي تعمل معه في الكويت، ولكنه يفضل سوسن، وقد أعلن ذلك في اجتماع الأسرة.

وسأل والده قائلاً:

- ولكن الحاج حسان يوافق؟ (ولم يقل سوسن توافق، لأنه يعلم شعورها نحوه جيدًا).

وقلت أنا ووالدته بصوت واحد:

- وإيه المانع يا ابني؟ هو أنت ناقصك حاجة لا سامح الله؟!
- لا أبدًا بس دول ناس مستواهم جامد علينا.

- يا ابني مانت صيدلي أد الدنيا ودخلك كويس.

- طيب وهي توافق على الإقامة بالكويت؟

- توافق.. متوافيقش ليه؟ خلِّي الموضوع ده عليا، خلاص نتكلم مع الراجل؟

- ماشي يا بابا توكل على الله.

وفي الجانب الآخر تمت موافقة أعضاء أسرة الحاج حسان، وأولهم ضياء على طلب هالة له، وطلب هيام لابنه الأصغر الدكتور حسن.

وفي نهاية الجلسة نهض الحاج حسان قائلًا:

- مبروك يا أولاد ربنا يتمملكم بخير.

وفي اليوم التالي وقبل أن أنطق بكلمة سبقني الحاج حسان في طلب ابنتيَّ هالة وهيام لابنيه ضياء وحسن، فوافقت بلا تردد، خاصة أنني قد أخذت رأيهما مسبقًا!!

ثم قلت:

- إحنا نستاهل يا حاج؟ ده شرف كبير لينا.

فأجابني:

- إحنا واحد يا أستاذ محروس.. إحنا نتشرف بيكم، وعمومًا إحنا مش هنلاقي أحسن منكم، وطلباتكم أوامر، وماتحملش أي هم.

ثم لاحظ الحاج حسان أنني أريد أن أقول شيئًا فبادرني قائلاً:

- اتفضل قول اللي أنت عايزه.

فتشجعت وقولت:

- وأنا كمان يا حاج ليا عندك طلب.
- اتفضل يا أخويا قول.
- ممكن نطلب الآنسة سوسن لابني خالد؟

فضحك الحاج حسان بسعادة غامرة قائلاً:

- نشوف الموضوع ده، وربنا يقدم اللي فيه الخير.

وفي خلال يومين جاء الرد بالموافقة، وذلك بعد أخذ رأي البنت، ولم يتبق إلا تحديد موعد الخطوبة، وامتلأ منزلهم بالفرح والزغاريد.

(٦)

انتهى العام الدراسي وانتهت امتحانات كلية الإعلام، وظهرت النتيجة، ونجحت سوسن بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى، وكانت الأولى على دفعتها.

وسرعان ما تم تعيينها بقناة «الشمس» التليفزيونية، وهي قناة معروفة يمتلكها رجل أعمال شهير، وبعد انتهاء مدة التدريب أسند إليها تقديم برنامج (السعد وعد)!

وذات مساء رجع الحاج حسان إلى منزله في غير موعده، فدهش الجميع لأن ذلك لم يحدث مطلقًا إلا في حالات الضرورة القصوى، وغيَّر ملابسه وارتدى أحدث بدلة وأحدث كرافته عنده، وقال لزوجته:

- ابقوا افتحوا التليفزيون الساعة ١٠ على قناة الشمس.

فقالت الحاجة وهي ما زالت مندهشة:

- ما إحنا كل أسبوع بنشوف الحلقة اللي بتقدمها البت، إيه الجديد يعني يا حاج؟

- أبدًا أبدًا سلام عليكم.

وفي العاشرة مساءً قامت الحاجة قمر بتشغيل التليفزيون وكانت المفاجأة، حيث ظهرت سوسن الإعلامية الواعدة وهي تطل من الشاشة الفضية، ثم قدَّمت ضيف الحلقة وابتسامتها الساحرة تملأ وجهها قائلة:

- مساء الخير عليكم جميعًا، اسمحوا لي أن أرحب بضيفي الكريم، رجل الأعمال الكبير، ورجل البر والإحسان المعروف الحاج حسان الشرباتلي.

وكان البرنامج على الهواء مباشرة، وصفق الحاضرون تصفيقًا حادًا، فمن لا يعرف الحاج حسان الشرباتلي؟، ولكن البعض لا يعرف أنه والد المذيعة سوسن.

وبدأت تحاوره بذكاء خارق، وعرفت عنه أشياء لم تكن تعرفها من قبل رغم أنه والدها، حيث تحدث عن مشواره الطويل مع الكفاح والطموح منذ أن ترك المدرسة الثانوية، وبداية عمله بالتجارة والأعمال الحرة، إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن.

وانتهت الحلقة بالتصفيق الحاد أيضًا.